اللسان العربي عند زكي الأرسوزي

Arabic Language of Zaki el Arsouzi.

Langue Arabe Chez Zaki el Arsouzi.

عبد الجفيظ عصام *.

جامعة غبد الحميد مهري قسنطينة2، الجزائر

تاريخ الإرسال:2018/04/10 تاريخ القبول: 2018/05/29 تاريخ النشر: 2018/07/01

الملخص:

نتناول في هذا المقال مفكرًا عربيًا نهضويًا قوميًا بعثيًا هو زكي الأرسوزي (1900-1968م) يمثل تيارًا جديدًا يمكن أن يطلق عليه اسم المركزية العربية، كرد على المركزية الأوربية الممثلة بتيار التغريب آنذاك، والمركزية الشرقية الممثلة بالاتجاه الإسلامي آنذاك بتركيا، وبذلك فقد أفصح عن منهجية نهضوية ممثلة في البعث اللغوي أي اللسان العربي الذي هو مستودع تراثنا، والذي يؤدي إلى بناء الإنسان وإصلاح المجتمع وبعث الأمة العربية، ونجد هذا، متضمنا في فلسفته اللغوية التي نسعى للكشف عن أهم جوانبها في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: زكي الأرسوزي ؛ اللغة ؛ اللسان العربي ؛ اللغة العربية ؛ الأمة العربية؛ التراث؛ المنهج.

Abstract :

We treat in this article ,a nationalists Arab thinker (BAASISTS) a defender of the Arab renaissance, he is Zaki Arsouzi (1900-1968) who represents a new current which be called Arab centralism as a reaction ,at the same time, against European centralism, represented by occidental's current and oriental centralism, represented ,in this epoch, in Turkey ,by the Islamic current .He offers us a methodology of renaissance trough a linguistic renewal. A renewal of our language, which represents to him the repository of our patrimony, which serve to construct the man and to reform the society and relaunch Arab nation. We found this in his linguistic philosophy, which we try to disclose their essential aspects in this article.

Key words: Zaki el Arsouzi; Language; Arabic Language; Arabic Nation; Patrimony; Method.

Résumé :

Dans cet article, nous abordons un penseur arabe nationaliste (baasiste) défenseur de la renaissance arabe, il s'agit de Zaki el Arsouzi (1900-1968) représentant une nouvelle tendance que l'on peut appeler l'arabisme central, par réaction à la fois au centralisation européenne représentée par le mouvement d'occidentalisation à l'époque et le centre oriental représenté en Turquie. La Renaissance est représentée dans la mission linguistique, la langue arabe, dépositaire de notre patrimoine, qui conduit à la construction de la réforme humaine et communautaire et de la nation arabe, et cela nous le retrouvons inclus dans sa philosophie linguistique, dans nous essayons de dévoilé ses aspects essentiels dans cet article.

Mots clés : Zaki el Arsouzi ; Langage ; Langue Arabe ; Nation Arabe ; Patrimoine ; Méthode.

*المؤلف المراسل.

مقدمة:

من خلال استقرائنا لما كتبه زكي الأرسوزي[1] حول اللسان العربي ندرك بوضوح أنه يشكل العمود الفقري لفكره، وأن بحثه لهذا الموضوع معناه الكشف عن عبقرية الأمة العربية في لسانها أي في لغتها التي عبرت عن تلك العبقرية تعبيرًا حيًا، بحيث يمكن إحيائها وبعثها من جديد إلى العالم، وذلك ببعث اللسان العربي الذي يعتبر من تجليات تجربته الرحمانية[2]، وبعدًا من أبعادها ومكونا أساسيًا لفلسفته القائمة في ثنايا هذا اللسان.

فالإشكالية التي سأعمل على بحثها ودراستها في هذه المقال تتعلق بوجه عام باللغة من جهة وباللسان العربي من جهة أخرى عند زكي الأرسوزي، وبالتحديد يمكن حصرها في التساؤلات التالية:

ما علاقة زكي الأرسوزي باللغة؟ وما هي الأسباب التي جعلته يهتم بها؟ وما هي أصول فكره اللغوي؟ وما هي إسهاماته اللغوية؟ وما منهاجه في دراسة اللسان العربي؟ وكيف نشأ هذا اللسان؟ وما هي مزاياه؟

أولا. زكي الأرسوزي واللغة:

أ- علاقة زكي الأرسوزي باللغة: لاشك أنها لم تكن علاقة اختصاص علميّ بحت لأنه لم يكن في الحقيقة رجل لغة أو نحو أو أدب، بل كان رجل فلسفة وسياسة، دخل عالم اللغة من باب السياسة، هذا يعني أن اللغة عنده لم تكن غاية في ذاتها بقدر ما كانت وسيلة لتحقيق غايات أخرى، أي أنه عن طريق اللغة استطاع أن يقدم الحلول لبعض المشاكل التي استعصى حلها، وهذا ما عبّر عنه بقوله: "نحاول أن نكشف للقارئ عن أصالة الموضوع، وأن نبني له نواحيه الجديدة ذات الطابع البدئي، وأن ندله عن الأسباب التي ساقتنا إليه، وعلى الظروف التي اكتنفت كتابته، لما لهذه الظروف وتلك الأسباب من تأثير على إنارة البحث. هذه الرسالة* تجيب بالحل على مشكلة اللغة إجابة قطعية، وهي بذلك تكون قد حلت إحدى المشاكل المتعلقة ببداية الأشياء المستعصي حلها حتى الآن" (زكي الأرسوزي، 1972، ص45).

---

[1] هو زكي بن نجيب بن إبراهيم، نسبة إلى قرية أرسوز وهي من قرى لواء الأسكندرونة، التي نسب إليها جده إبراهيم، ورث هذه النسبة (الأرسوزي) عن أجداده، أما تسميته (زكي) فكانت تكهنا من والدته، أنه سيكون ذا شأن، ولد عام 1900 في مدينة اللاذقية على الساحل السوري، وانتقل مع أفراد أسرته إلى أنطاكية، حيث كان والده يمارس فيها مهنة المحاماة، وفيها ترعرع وتعلم وعلم وناضل، وهاجرها إلى سوريا عام 1938 عند احتلالها من قبل الأتراك ليواصل رسالته التعليمية ونضاله السياسي إلى أن وافته المنية عام 1968 بدمشق تاركا وراءه إنتاجًا كبيرًا تم جمعه في ست مجلدات، تحت عنوان "المؤلفات الكاملة". خليل أحمد، 1981، دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي، ط2، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ص21 وما بعدها. وزكي الأرسوزي، 1976، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس، ط1، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، دمشق، ص487.

[2] التي تعد جوهر فكره بوجه عام، وفكره الفلسفي بوجه خاص، وهي تجربة ذاتية وجدانية، روحية، تجربة حياة، تجربة إنسانية ترتبط بالوجود الإنساني وبالمعرفة وأخلاق البطولة. وهي بهذا المعنى تجربة فلسفية، تختلف عن باقي التجارب الأخرى. ناصيف نصار، 1975، طريق الاستقلال الفلسفي: سبيل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط1، دار الطليعة، بيروت، ص2 وما بعدها.

*يقصد بها رسالة البعث العربي الأولى "العبقرية العربية في لسانها"، التي تم نشرها في مكتبة الكشاف بدمشق لصاحبها مُحَمَّد الفرعوني الطبعة الأولى 1943، بينما الطبعة الثانية فصدرت عن دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، سورية، عام 1957.

ب- الأسباب التي جعلت زكي الأرسوزي يهتم باللغة: نكشفها من خلال السيرة الذاتية لحياته، فلما هاجر زكي الأرسوزي من أنطاكيا** (زكي الأرسوزي، 1974، ص185 وما بعدها.) إلى سوريا، وكان ذلك عام 1938 عند احتلالها من قبل الأتراك سأل نفسه عن الأسباب التي كانت تحمله على التضحية واتباع صوت الواجب صوت الأجداد الملخ عادة بمفهوم الأمة، ويجيب الأرسوزي عن هذا التساؤل قائلا: "ربما كانت الدعوة مزيجًا من كليهما، من الواجب المنبعث عن أعماق النفس، ومن الوحيّ الحاصل من مقتضيات الظروف، ولكني كنت أعود إلى المسألة من مستوى آخر، كنت أتساءل: هل الأمة محصلة للظروف التاريخية أم هي عبقرية تبدع مظاهرها ومؤسساتها كاللغة والفن والعرف والأخلاق... الخ وتوجهها في الوجهة التي ترفع بأبنائها نحو غاية مثلى؟"(زكي الأرسوزي، 1972، ص45).

لقد أجاب الأرسوزي عن هذا التساؤل بقوله: "بينما كنت متحيرًا في أمري مترددًا بين دراسة الفن والتشريع، عليّ أجد فيهما قبسًا يخرجني من الحيرة، إذ بصدفة سعيدة تدلني على مكمن السر: اللغة، أما الفرضية السعيدة فهي أنني عندما كنت أتصفح القاموس رأيت الصلة بين الأفعال ذات طبيعة مزدوجة: صوت وخيال مرئي (...) وعندما رأيت الأفعال تنتهي بصوت طبيعي كصوت خرير الماء مثلاً، وخيال مرئي هو الماء في مجراه، هو السبب في حدوث الصوت، أدركت السر في نشأة اللغة، ودهشت لما بدا لي شمول مبدأ الكلمات العربية جميعها"(زكي الأرسوزي، 1972، ص54).

ويرى زكي الأرسوزي أن الأغرب في هذا الاكتشاف هو كما قال: "الانسجام بالمعنى بين كلمات وضعت في أمكنة متباعدة في أوقات متفاوتة حتى لقد بدت لي الكلمات والقواعد، من حيث أنها تعبّر عن وجهة نظر معينة على مثال كلمات القصيدة في تعبيرها عن الإلهام مصدر النظام فيها، وإذا كانت القصيدة توحي بمبدعها الفنان فلماذا لا يوحي الانسجام بين ظواهر اللغة بعبقرية أمة مبدعة وموجهة"(زكي الأرسوزي، 1972، ص55).

ج- أصول الفكر اللغوي عند زكي الأرسوزي: لقد حددها رفيقه وشارح فكره أنطوان مقدسي، وذلك في معرض حديثه عن اللغة ضمن مقال نشره في مجلة "الموقف الأدبي". تحت عنوان "في الطريق إلى اللسان" جاء فيها أن زكي الأرسوزي عرف منذ سني الدراسة، الرومانتيكية الألمانية، إن لم يكن في نصوص أعلامها ففي أهم أفكارها، حيث ربط اللغة بالأمة، التصور العضوي الحيوي للوجود، البحث عن اللغة البدائية إلى غير ذلك، وعرف منها بشكل خاص كتاب فيخته "رسائل إلى الأمة الألمانية"، ولقد كان كتابه المفضل في علم اللغة وفلسفتها منذ سني الدراسة مؤلف قندرييس "اللسان مقدمة لغوية لعلم التاريخ" والذي انتقى منه ثلاث موضوعات استأثرت بانتباه الأرسوزي: نشأة اللغة حيث يقرر قندرييس أن البحث فيه ممتنع في حين يعلن زكي الأرسوزي أنه حلة مرة، ولكل مرة، باكتشاف عبقري يلخ فلسفته، ومن ثم ربط اللغة بالمجتمع يرفضه الأرسوزي، ليجعل من اللسان الوجودي تعبيرًا، وأخير التمييز بين اللغة واللغات الذي استهوى الأرسوزي أكثر من أي موضوع آخر، وكذلك كتب مييه أستاذ فندرييس (أنطوان مقدسي، 1972، ص46 وما بعدها).

وبعد أن قدم أنطوان مقدسي أصول فكر زكي الأرسوزي اللغوي، تساءل: هل هذه الأصول وغيرها أفقدته الأصالة؟

فلقد أجاب أنطوان مقدسي عن هذا التساؤل بقوله: "معاذ الله فالرجل كان يصهر كال ما يقرأ على الضبط، كما يصهر الجسم الحي الغذاء يتمثله ويذيبه في كيانه"(أنطوان مقدسي، 1972، ص47).

ثانيا. جهد زكي الأرسوزي اللغوي ومنهاجه:

**التي يقول عنها زكي الأرسوزي: "وإن كان اسمها مشتق من اسم (أنطيوخس) أحد قواد الأسكندر المقدوني، فإنها في الأصل موجودة قبل الفتح اليوناني، وكان اسمها القريتين (الحيين)"، وكان هناك حي ثالث من اليونان الذين توافدوا إليها من البحر (...) وكان ما فعله (أنطيوخس) أنه قام سورًا يجمع في إطاره الأحياء الثلاثة، ومن هنا نشأ اسم أنطاكيا". وهي قرية من قرى لواء الأسكندرونة.

أ- جهده اللغوي: تعود بداية جهود زكي الأرسوزي اللغوية إلى عام 1938م وهو التاريخ الذي هاجر فيه من أنطاكيا إلى سوريا ليستقر في دمشق، فكان يقيم في بيت صغير قديم متواضع بحي السبكي مع مجموعة من طلابه اللوائيين* المهاجرين، وبعد أربعة أعوام من الجهد استطاع زكي الأرسوزي أن يقدم لنا ثمار ذلك الجهد الذي بذله خلال تلك السنين التي تمثل بحق مرحلة السنين العجاف** في حياته. لكن إذا كان العوز والفقر والاحتياج والظلم والاستبداد والاستعمار هي السمات البارزة التي تطبع هذه المرحلة، فإن إرادته وطموحه كانا الأقوى من كل ذلك، فرغم هذه الظروف الصعبة والقاسية فهاهو يصدر كتابه "العبقرية العربية في لسانها" عام 1943م، ولقد ظل يشرح وجهة نظره في اللغة حتى سنة وفاته 1968م. ففي هذا الكتاب حدد أسس فكره من الناحية النظرية والعملية، وبعده أصدر "رسالة اللغة" سنة 1952 وهي خلاصة عامة وسريعة لما ورد في الكتاب الأول مع إيضاحات متممة. وأخيرًا أصدر "اللسان العربي" سنة 1963م الذي يستجلي عرشين عامًا بعد الكتاب الأول، حدسه الأساسي فيعمه ويزيد أبعاده وضوحًا (أنطوان مقدسي، 1972، ص15). يضاف إلى ذلك العديد من المقالات والنصوص اللغوية التي تضمنتها مؤلفاته الكاملة * (سليم بركات، 1979، ص455.

لكن ما يمكن أن نؤكد عليه هنا أن زكي الأرسوزي في الحقيقة ليس أول من بحث في فلسفة اللغة العربية ولا في فقهها، ولكنه بلاشك هو أول من حاول إعطاء القومية العربية مضمونا ثقافيا أصيلاً عن طريق اللغة ليخرج بمقولة الأمة العربية عن حدود العلاقات المصلحية إلى علاقات رحمانية يشد الأجيال العربية إلى بعضها برباط من عبقرية قد تفاعلت منذ فجر التاريخ مع الإنسان العربي من جهة، ومع طبيعة الوطن العربي من جهة ثانية، فأبدعت لهذه العبقرية لغتنا وفننا وأخلاقنا وتقاليدنا وقيمنا الروحية المثلى(زكي الأرسوزي، 1968، ص35).

ولقد اعتمد زكي الأرسوزي على اللغة في معالجة مختلف المشاكل التي تعرض لها في مؤلفاته الكاملة. جملة لا جدوى من وضعها، إما شرح مضمونها بالتفصيل أو إزالتها.

وتجدر الإشارة أن زكي الأرسوزي يفضل استخدام كلمة "لسان" وهذا عندما يكون الحديث عن اللغة العربية، وتأكيدا لذلك يقول: "لقد خ العربي لهجته بحق بكلمة "لسان" هذه الكلمة المؤلفة من الحروف "ل"، "س"، "ن" الرشيقة، وأطلق على اللهجات السامية كلمة "لغة" من "لغا"، "يلغو" وما يتضمن حرف "الغين" لما فيها من غموض وإبهام" (زكي الأرسوزي، 1972، ص81 وما بعدها).

فاللغة في معناها اللغوي هي من الأسماء الناقصة وأصلها لَغْوَةٌ من لَغَا إذ تكلم، واللغو واللغا: السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه فائدة ولا نفع، قال الشافعي: اللغو في لسان العرب الكلام غير المعقود عليه، ولَغَا في القول يَلْغُو ويَلْغَى لَغْوًا ولَغِيَ بالكسر، يَلْغَى لَغَا ومُلَغَاةً: أخطأ وقال باطلاً، واللغة: اللسنُ وحدها أنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، وقيل أصلها لَغْيٌ أو لُغَوٌ وجمعها لُغَى لغات (ابن منظور، ص404 وما بعدها).

ولعل هذا ما جعل زكي الأرسوزي يعرض عن استخدام كلمة "لغة" لأنها من اللغو على حد تعبيره، ويستبدلها بالكلمة القرآنية "لسان" أداة القول المبين الذي يدعن له الإنسان العاقل عندما يسمعه أنطوان مقدسي، 1972، ص 21.

---

*هم الذين هاجروا لواء الأسكندرونة الذي ألحق بتركيا عام 1938م إلى سوريا، نذكر من بينهم: صدقي إسماعيل، وأدهم إسماعيل، ووهيب غانم، ومُحَمَّد علي الزرقاء، وسليمان العيسي وغيرهم.

**تمتد ما بين عام 1938 إلى نهاية الحرب العالمية الثانية 1945م.

*والتي تم جمعها في ست مجلدات، من قبل لجنة تخليد زكي الأرسوزي -اللجنة الفرعية لطبع الآثار- والتي طبعت بمطبعة الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، بدمشق، المجلد الأول 1972، والثاني 1973، والثالث والرابع 1974، والخامس 1975، والسادس 1976، إن النظرة الأفقية في هذه المجلدات، تكشف لنا أن الأرسوزي كان لغويًا في المجلد الأول، وفيلسوفًا ومربيًا على التفكير في المجلد الثاني، سياسيا ومناضلا بالنظرية والتطبيق ومشرعًا في المجلد الثالث والرابع، موجها إلى الأصالة في القيم والحديث من حياة العرب، المجلد الخامس والسادس.

ب –منهاجه في دراسة اللسان العربي: يقوم على ما يلي:

– أن نتعين منظومة معاني أسرة الكلمة، وأن تحدد نشأة هذه الأسرة، وإذا اقتضت الحاجة أن نتابع تطوراتها بالتسلسل إلى أن تنتهي بالصورة الصوتية المقتبسة مباشرة عن الطبيعة.

– وأن يتعين اتجاه الذهن العربي الذي تنطوي عليه مراتب الاشتقاق ويكشف عن طبيعته وعن طبيعة الموجودات التاريخية التي دعت إلى تحقيق هذا الاتجاه البادي في المشتقات.

– وأن تحصى وتعين النُّهجُ التي سلكتها العبقرية العربية في بناء لسانها(زكي الأرسوزي، 1972، ص127).

يضاف إلى ذلك أن دراسة اللسان العربي تستلزم اتجاهين: اتجاه الصوت واتجاه المعنى، فاتجاه الصوت ينبغي أن يتناول ثلاثة مباحث هي:

– مبحث الأصوات: وبه ترجع الكلمة بالاشتقاق إلى الأصوات المقتبسة من الطبيعة.

– ومبحث البيان: وبه تتعين العلاقة بين الصيغة والمعنى من جهة، وبين وظيفة الكلمة وإعرابها من جهة أخرى، على اعتبار أن الصوت بادرة طبيعية للمعنى.

– مبحث الإيقاع: وبه يدرس التصريف والإعلال والإدغام والإبدال.

أما اتجاه المعنى: فيتناول ما يلي:

– أمر الحدس أو المصمم الذي تكشف وجهاته المختلفة، الكلمات المشتقة من المصدر ذاته، سواء أكانت صورًا حسيّة أو مفاهيم معنوية.

– أمر تعيين ما كان لتداعي الصور والظروف والتاريخ من تأثير وإيجاد عدد كبير من مشتقاته.

– أمر الكشف عن مغزى القواعد النحوية: مغزى تتضح به العقلية ومراميها في الحياة(زكي الأرسوزي، 1972، ص369 وما بعدها).

ثالثا. نشأة اللغة (اللسان العربي) عند زكي الأرسوزي:

إن المشكلة التي يثيرها هذا المبحث تتعلق بوجه عام باللغة: وبالتحديد بنشأتها ولقد طرحها زكي الأرسوزي على أساس تاريخي حيث قال: "كان الناس يتساءلون: كيف وجدت اللغة؟ أهي من وضع إلهي أم هي من وضع إنساني؟ حتى لقد جرت مناقشة في التاريخ القديم بين ملك مينوس في كريت وبين ملك مصر فرعون حول أي اللغتين أقدم، اللغة المصرية، أم اللغة الكريتية؟ وحسمًا للاختلاف بينهما فقد عزل طفل عن ذويه منذ الرضاعة لمعرفة اللغة التي سيتكلمها، واعتبار هذه اللغة هي الأصل، ولكن لم تأت بالطبع في صالح أي من اللغتين، كما انشغل بال مفكري اليونان، ومن بعدهم مفكري العرب في حل مشكلة اللغة، أهي من وضع إلهي أم من وضع إنساني؟ ولمعرفة ما إذا كانت اللغات المنتشرة في العالم ترجع إلى أصل مشترك أم هي ذات أصوات مختلفة"(زكي الأرسوزي، 1975، ص188).

والنتيجة التي توصل إليها زكي الأرسوزي من خلال استقرائه التاريخي لمشكلة أصل اللغة، هي: "وأن المفكرين كانوا يفتقرون إلى مثال يؤيدون به حججهم، فقد ظلت المناقشة في حدود الفرضيات حتى انتهى الأمر إلى القول بأن أصل اللغة كأصل كل شيء ضائع في طيات الزمن مستعصي على عقل البشر"(زكي الأرسوزي، 1975، ص188).

معنى هذا أن المفكرين عبر العصور التاريخية لم يتمكنوا من تقديم حل لهذه المشكلة وهذا مما جعلها تبقى عالقة ومستعصيّة على عقل الإنسان. لكن هل حقًا أن الأرسوزي استطاع أن يقدم حلاً لمشكلة أصل اللغة واللسان العربي خاصة وأين وجده؟ وما نوع موقفه من هذه المشكلة وما هي المسوغات التي اعتمد عليها موقفه؟

يعتقد زكي الأرسوزي أنه اهتدى إلى اكتشاف في اللغة العربية، مكّنه من تقديم الحل لمشكلة اللغة واستقلال اللغات في النشأة، ولقد عبّر زكي الأرسوزي عن ذلك بقوله: "وهكذا فإن اكتشافنا في اللغة العربية يقدم حلاً للمشكلة المتقدم طرحها لا ينال منه الشك، أعني حل مشكلة نشأة اللغة واستقلال اللغات في النشأة"(زكي الأرسوزي، 1975، ص189).

أما موقفه من مشكلة نشأة اللغة فهو حسب ناصيف نصار موقف متميز بقطيعته الوحيدة الجانب، فالأرسوزي يرفض رفضًا قاطعًا أن يكون اللسان العربي نتيجة اصطلاح أو نتيجة مواضعة واتفاق عقلي بين الناس في حالتهم الاجتماعية، ويرفض كذلك التسليم بأنه وحي من السماء (ناصيف نصار،ص194). تأكيدًا لذلك يقول الأرسوزي: "ربط المسائل بالغيب ليس بحل لها، بل أن في ذلك لَحَدًا من سلطان العقل في تقصي الأسباب، وأما اعتبار اللغة مجموعة من الرموز موضوعة من قبل العقل فينتهي بحلقة مفرغة لا مخرج لها، إذ أن وضع اللغة على ما فيها من تنسيق ونظام يتطلب عقلاً بمنتهى الكمال، وكيف يسمو العقل إلى هذا الحد، إذا لم يستند في انتشاره إلى الكلام؟"(زكي الأرسوزي، 1972، ص54).

لذلك فالحل الذي قدمه الأرسوزي لنشأة اللغة عامة واللسان العربي خاصة هو: "الحل الواقعي الطبيعي، أي الحل الواقعي الحيوي لأن الحدس الفلسفي عند الأرسوزي ليس حدس الجوهر بقدر ما هو حدس الحياة، ولذلك جاءت واقعيته في تفسير نشوء اللغة واقعية حيوية"(ناصيف نصار،ص194).

لكن السؤال الذي يمكن طرحه هو: ما هي المسوغات التي قدمها زكي الأرسوزي لإثبات موقفه من مشكلة نشأة اللغة عامة واللسان العربي خاصة؟

إن المبررات التي قدمها زكي الأرسوزي لإثبات موقفه من المشكلة السالفة الذكر فتتمثل أساسًا في اكتشافه لنظام المعجم العربي حيث لاحظ عن طريق الفرصة السعيدة –كما قال– أن الصلة بين الأفعال المتسلسلة ذات طبيعة مزدوجة: فهي ذات طبيعة صوتية، وذات خيال مرئي، فكل كلمة في اللغة لها صورتان: صورة صوتية ومرئية أي سمعية وبصرية، ويوضح ذلك بمثال "الماء"، فصورة الماء الطبيعية الصوتية هي خرير الماء، وصورته الطبيعية المرئية الماء ذاته في مجراه وهو السبب في حدوث الصوت(زكي الأرسوزي، 1972، ص55).

يفهم من هذا حسب الأرسوزي: "أن اللسان العربي اشتقاقي البنيان، ترجع كافة كلماته إلى صور صوتية –مرئية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة: عن الطبيعة الخارجية تقليدًا للأصوات الحاصلة فيها، مثال ذلك: "تَرَّ"، "فَقَّ"، "خَرَّ"، "خشَّ"، "زمَّ"، أو عن الطبيعة الإنسانية بيانًا لمشاعرها، مثال ذلك: "أنَّ"، "أهَّ"..."(زكي الأرسوزي، 1972، ص71).

علمًا أن زكي الأرسوزي قد أرجع مصادر الأصوات التي صاغ منها الذهن العربي كلماته إلى ثلاثة مصادر حددها بقوله: "لدى المتأمل في الكلمات العربية والارتقاء بها إلى مصادر الأصوات الطبيعية يتبين أن الذهن قد استعار أصول كلامه من ثلاثة مصادر صوت الهيجان الصوت المحدث في الفم، وصدى حدوثه الذي هو معناه، وأخيرًا الأصوات التي تقع في الطبيعة"(زكي الأرسوزي، 1968، ص36).

ويرى زكي الأرسوزي أن الذهن العربي كمال قال: "قد سلك طريقين في صوغ الكلمات من الأصوات الإلحاق*(زكي الأرسوزي، 1968، ص36) والتحويل** (زكي الأرسوزي، 1972، ص36). "(زكي الأرسوزي، 1972، ص307).

---

* هو إلحاق حرف في المقطع الصوتي مثال على ذلك الكلمات التالية: خرب، خرج، خرع، وذلك بإلحاق كل من حرف (ب) إلى خر (خرب)، وإلحاق (ج) إلى خر (خرج)، وإلحاق حرف (ع) إلى خر (خرع).

فالإلحاق والتحويل هما نهج الطبيعة: "أي ازدواج الصورة الصوتية بالمرئية أو الحالة النفسية بعبارتها"(زكي الأرسوزي، 1972، ص76).

فبالإضافة إلى هذين النهجين، سلك الذهن العربي في تكوين الكلمات أيضا التداعي [***](زكي الأرسوزي، 1972، ص76). والنحت[****] (زكي الأرسوزي، 1968، ص 36 ،76).

ممّا سبق ذكره يتضح أن زكي الأرسوزي قد بيّن لنا الطرق التي يتبعها الن العربي في كيفية إنشاء الكلمات وآليتها: فالكيفية تظهر بمناخ الاشتقاق التي اتبعها الذهن العربي لإنشاء كلماته وتطويرها، وأما الآلية فتظهر باستخدام السمع والبصر لتكييف الصوت المحدث في الفم، وفق الصورة المرئية في الوجود الخارجي أو المدركة في الوجدان الداخلي (خليل أحمد خليل، 1981، ص125).

يفهم من هذا أن زكي الأرسوزي قد أرجع نشأة اللسان العربي إلى الطبيعة والنفس، لكن المتتبع لما كتبه زكي الأرسوزي حول هذا الموضوع يجد أنه قد أرجع أيضا اللسان العربي إلى المعنى (الإله) ويظهر هذا بوضوح في كتابيه: "العبقرية العربية في لسانها" و"اللسان العربي" ففي معرض حديثه عن مزايا اللسان العربي جاء فيه أنه بديء وأصلي، وهذا يعني ممّا يعنيه: "لسان آدم، فلما كان هذا اللسان بديئًا (...) فقد استكمل كافة شروط الأصالة"(زكي الأرسوزي، 1972، ص219).

علمًا أن لسان آدم عند زكي الأرسوزي هو لسان المعنى متجليا في الوجود وبذلك تكون نشأة اللسان معنوية أي إلهية لأن آدم كائن بين الأرض والسماء، إذ أن بدنه من الأديم، وروحه منبثقة عن روح الإله، وهي صورته، وما البدن والروح إلا وجهتا الوجود (خليل أحمد خليل، 1981، ص139).

وهذا ما عبّر عنه زكي الأرسوزي بقوله: "وإن أسطورة آدم (...) هذه الأسطورة التي عبّرت بها الأمة العربية عن نظرتها في الوجود (...) وتشير إلى رسالة هذه الأمة في التاريخ، فآدم (من الأديم)، وقوته الإدامة، وهو من الأرض عنها يقتبس عناصر بدنه، ومنها يستمد نسغ حياته، وهو منها كالبرعم من شجرته، وليس البدن إلا بذور النفس في الكون ولئن اقتبست بنيتها، فقد دلت بهذا الاقتباس على نفوذها فيه وبدء سيطرتها عليه، وهي حققت بالإنسان صوتها، فخلقت من بدنه قدرًا طوع إرادتها، به تحرر معناها وبهذا التحرر أصبحت على صورة الإله، مبدعها، إن اللسان العربي قد أشار باتجاهات الحدس التي انطوت عليها كلماته إلى حدود هذه الصورة ومعنى نموها"(زكي الأرسوزي، 1972، ص57 وما بعدها).

معنى هذا أن نشأة اللسان العربي معنوية أي إلهية، لأن آدم كائن بين الأرض والسماء، إذ أن بدنه من الأديم، وروحه منبثقة من روح الإله، وما البدن والروح إلى وجهتا الوجود (خليل أحمد خليل، 1981، ص139).

وبهذا يكون اللسان العربي عند زكي الأرسوزي قد نشأ من المعنى المتجلي في الوجود بصورة الكائن الذي خلقه من أديم الأرض ونفخ فيه من روحه، فصاغ لسانه من صوتي: الطبيعة والطبع، ونما بالاشتقاق، محتفظا بنشأته الإلهية وطابعه الرحماني (خليل أحمد خليل، 1981، ص145).

[**] فهو الانتقال من حرف إلى آخر شقيقه بالمخرج، تعبيرًا عن معنى مستجد، بمعنى آخر هو تبديل حرف بحرف شقيق، ولتوضيح ذلك نقدم الكلمات التالية: تر، در، هر، هذه الكلمات ترجع حسب الأرسوزي إلى صوت سقوط الماء، متقطعًا تر تر، وهكذا يتحول بتحول حرف (تاء) على شقيقه بالمخرج (د) استحدث الذهن العربي (در) در الماء ودر الحليب وهكذا.

[***]هو نهج اصطلاحي صنع منه الذهن العربي الأفعال والأسماء، مثل "باب" من حرف (الباء) و(أب) إليه أي اشتقاق و(أبه) أي فطن، و(الأبهة) النخوة والعظمة، و(أبى) ترفع عن الدنيا.

[****]هو أحد النهج التي اتبعها الذهن العربي في إنشاء الكلمات وتبلغ قدرة الإيحاء منتهاها في الكلمات المنحوتة، فمثلا كلمة (ضفضع) توحي حسب الأرسوزي بكائن يقع على ضفاف الأنهر فيدعو بعضه بعضا، تبعًا لنحتها من: ضفة ودعا

النتيجة العامة التي نخلـ إليها من خلال تحليلنا السابق أن زكي الأرسوزي قد أرجع حسب خليل أحمد خليل نشأة اللسان العربي إلى ثلاثة مستويات: الطبيعة والنفس والمعنى (الإله) علمًا أن المستوى الثالث (المعنى) لم يقل به ناصيف نصار الذي أرجع نشأة اللسان العربي إلى الحل الواقعي الحيوي فقط. لكن السؤال الذي يمكن طرحه هو ما هي مزايا اللسان العربي؟

رابعا. مزايا اللسان العربي عند زكي الأرسوزي:

يرى زكي الأرسوزي أن اللسان العربي ينمو بالاشتقاق، وبه أيضا تظهر مزاياه، فإذا كان التراث القومي عنده: "هو المظهر الذي تتجلى فيه عبقرية الأمة، ولما كان تراثنا يتلخـ في لسانها، وكانت حياتنا الأدبية-الاجتماعية، استجلاء للمعنى المتضمنة في كلماتنا، فقد أثرنا العمل بأن نبدأ بالتنبيه إلى طابع هذا اللسان الخاص ومزاياه"(زكي الأرسوزي، 1974، ص118).

يرى زكي الأرسوزي أن الميزة الأساسية للسان العربي أنه: "اشتقاقي البنيان"(زكي الأرسوزي، 1972، ص71) ، فيه تنكشف مزاياه اللغوية والاجتماعية والثقافية.

أ- من الناحية اللغوية: يمكن أن نقتصر على ذكر المزيتين التاليتين:

1- **أن اللسان العربي بدائي:** ويعني زكي الأرسوزي بالبدائي: "أن جميع الكلمات العربية ذات جذور في الطبيعة لا في التاريخ كما هي الحالة في اللغات الأخرى" (زكي الأرسوزي، 1975، ص193).

هذا ممّا يمنح اللغة العربية (اللسان العربي) أصالة وذلك لكونها: "طبيعية منذ فجر تكونها حتى غاية مرتعاها، وذلك يشمل الحروف والحركات والكلمات" (زكي الأرسوزي، 1975، ص193).

معنى هذا أن اللسان العربي: "ظل محتفظا بفضل بنيانه الاشتقاقي، بأصوله في الطبيعة، وبتماسك نموه نحو أداة بيانية متكاملة، فالكلمة لم تزل فيه على نشأتها الأولى، صورة صوتية تحمل طابع المعنى الذي أنشأها، وتدل عليه دلالة المبنى على المصمم، وبنيان هذا اللسان لم يزل يؤلف كلاً حيًا تنسجم فيه المقومات كالنحو والكلام والحروف والحركات، انسجام الأنسجة في البدن" (زكي الأرسوزي، 1972، ص299).

2- **أن اللسان العربي بدئي:** ويعني زكي الأرسوزي بالبدئي: "أن اللغة العربية نسيج وحدها فريدة ليس لها مثيل بين لغات العالم"(زكي الأرسوزي، 1975، ص193). ويستدل زكي الأرسوزي على هذه الميزة بإقامة مقارنة بين اللغة العربية وبين لغات أخرى كالفرنسية مثلاً، يتبين: "أن كلاً من الكلمات الفرنسية قد حصلت في ظرف تاريخي معين، من تحوير إحدى كلمات اللغة اللاتينية، ومن هنا أيضا أتى اعتبار الفرنسية لغة مشتقة، لا أصلية، وما قيل على الفرنسية ينطبق عن لغة الأم، اللاتينية، إذ أن كلا من كلمات هذه اللغة قد حصلت بدورها من تحوير كلمات اللغة الهندية- الأوربية، أرومة اللغات المنتشرة في شمالي أوربا حتى جنوب الهند، واللغة الهندية-الأوربية ذاتها ليست بدائية، بل تضيع جذور كلماتها في مجال التاريخ" (زكي الأرسوزي، 1972، ص341).

والنتيجة التي توصل إليها زكي الأرسوزي من خلال هذه المقارنة أن اللسان العربي: "ظل محتفظا بنمط نموه نحو أداة بيانية متكاملة، فضلاً عن احتفاظ كلماته بجذورها في الطبيعة، بل ظل محتفظا بوجه الحياة الأصيلة وبنهج تكوين الإنسانية"(زكي الأرسوزي، 1974، ص120 وما بعدها).

ب-من الناحية الاجتماعية: لقد تحدث زكي الأرسوزي في معظم مؤلفاته عن مزايا اللسان العربي في بناء الإنسان من الناحية الاجتماعية وأضفى عليه أبعادًا اجتماعية: "لأن بنيان اللغة الاشتقاقي مركب في رأيه على شاكلة بنيان المجتمع" (ناصيف نصار، 1994،ص288). ولهذا رأى أن مزايا اللسان العربي على الصعيد الاجتماعي تشمل على عدة مزايا* وسأكتفي ببيان ميزتين فقط، وهما:

1-الطابع الفلسفي للسان العربي: أهم ما في هذا الطابع استقامة كلمات اللغة لتبوح بالبنيان الاجتماعي المثالي الذي يرقى بالإنسان من الواقع المحسوس إلى المثل الأعلى، فيتحول بذلك من شخ إلى ذات تعلو عن الشؤون الإنسانية المتوفرة في البيئة إلى الآية التي هي حكمة وجود هذه الشؤون نفسها(خليل أحمد خليل، 1981، ص167 وما بعدها).

فاللسان العربي حسب زكي الأرسوزي ذو طابع أصيل، مبدأه المعنى وتجلياته الأصوات، وبعث الأصوات الطبيعية بالدراسة التحليلية، يبعث المعنى، ويحرر الإنسان بالارتقاء إلى العبقرية، وكل كلمة من الكلمات الإنسانية تحقق هذا الارتقاء، ببعث حدسها، فيبني الإنسان مجتمعه على أسس فلسفيَّة اجتماعية أصيلة: "فالحب هو الشعور بروعة المثل الأعلى المتجلي في نفس الذي يهوى، أما العشق فينطوي على الاصطفاء وعلى نزعة الحياة إلى التطور والكمال، أما الخطوبة فتبشر بأصولها "خط" إلى التشبث والإقدام إلى الحدس المتضمن كل المستقبل الذي يكلله الزواج..." (زكي الأرسوزي، 1972، ص343).

ويخل زكي الأرسوزي شرحه وتحليله لتلك الكلمات وغيرها، وهذا بعد أن يعيدها إلى جذورها الأصلية في الطبيعة والنفس والمعنى (الإله) ليركب منها فلسفة اجتماعية لبناء الإنسان وإصلاح المجتمع.

2-الطابع الشعري للسان العربي: لقد تناول زكي الأرسوزي مزية اللسان العربي الشعرية في العديد من مؤلفاته، والتي سنعتمد على البعض منها في استجلاء هذا الطابع الذي تساءل عنه فقال: "وإذا كانت القصيدة توحي بمبدعها الفنان، فلماذا لا يوحي الانسجام بين ظواهر اللغة بعبقرية أمة مبدعة وموجهة؟"(زكي الأرسوزي، 1972، ص343). وفي ن آخر يقول: "ولئن كان شعار كل من أبنائها البطولة*(زكي الأرسوزي، 1974، ص76). (زكي الأرسوزي، 1973، ص215).، فقد اخت كل منهم بالشاعرية اللائقة وبروعة البطولة"(زكي الأرسوزي، 1972، ص161).

لكن الذي يعنيني هنا هو طابع الكلمة الشعري، وتأثير ذلك في البناء الاجتماعي، ويتساءل زكي الأرسوزي عن مكونات الشعر وصلته بالكلمة العربية قائلاً: "مِمَّ يتألف الشعر؟ من معنى، ومن إيقاع صوتي تنتقل على موجة تجربة الشاعر الفنية إلى القراء أو على المستمعين، ومن خيال مرئي يضفي رواءه على العبارة الصوتية (...) وكذلك الكلمة العربية، تتألف من صوت بياني ومن خيال مرئي ومن معنى هو قوام تآلفها"(زكي الأرسوزي، 1972، ص350 وما بعدها).

يفهم من هذا الن أن الكلمة العربية مثل الشعر من حيث مكوناته الأساسية، فهي مثله تبعث الشعور من الوجدان لدى التجاوب الرحماني بين الإخوان (زكي الأرسوزي، 1972، ص351).

لأن المعنى كما قال زكي الأرسوزي: "فهو حدس ينجم من الوجدان نحو الإلهام، كمعنى لتجربة الشاعر الفنية، وهو يدعو صاحبه إلى الإفصاح عنه بالعبارة الصوتية كما يدعو الإلهام الفنان للإفصاح عنه بالقطعة الفنيّة، والإفصاح عن الحدس في اللغة، وإن بدا لأول وهلة

---

*وهي طابع اللسان الفلسفي، والشعري، والتربوي، والأخلاقي.

*تحتل فكرة البطولة في كتابات زكي الأرسوزي موقعًا محوريًا حتى أنه يمكن وصف فلسفته كلها بأنها فلسفة البطولة، علمًا أن الأخلاق التي دعا إليها زكي الأرسوزي هي أخلاق البطولة، هي أخلاق العمل بلا جزاء، أخلاق الإصلاح، والزعامة والرسالة، وهي غاية الحياة، وغاية ما تسعى إليه الكائنات. أما البطل هو المصلح الاجتماعي، أي ذلك الذي تمكن بما أوتي من نفاذ البصيرة وصدق العزيمة، من أن يدرك مراتب الوجود إسهامًا، حيث تتجلى له الحقيقة فيصبح نبراسًا يهدي البشر.

خاضعًا لقانون التداعي أي لدعوة صورة لصورة أخرى نظرًا لما بينهما من علاقة اقتران أو تضاد أو مشابهة، فإنه ينكشف للمتأمل انكشاف الإلهام من خلال الأنغام في الأنشودة" (زكي الأرسوزي، 1972، ص353).

فبهذا يكون التجاوب الرحماني بين الإخوان هو المطلوب للبعث القومي والبناء الاجتماعي، ولما كان الشعر يحققه بما له من تأثير، وكانت اللغة العربية ذات طابع شعري فإن بعثها ذو دور أساسي في بعث الأمة وبناء المجتمع وتحقيق الانسجام بين يقظة الأحفاد وعبقرية الأجداد (خليل أحمد خليل، 1981، ص162).

صفوة القول أن مزايا اللسان العربي على الصعيد الاجتماعي تشمل طابع اللسان الفلسفي والشعري والتربوي والأخلاقي.

الخاتمة: من تحليلنا السابق نستنتج:

أن علاقة زكي الأرسوزي باللغة لم تكن علاقة اختصاص علمي بحت، لأنه دخل اللغة من باب السياسة. وأن مجهوده اللغوي الأصيل جسده في حدسه الأول "العبقرية العربية في لسانها". وهو يفضل استخدام كلمة (لسان) أداة القول المبين عندما يكون الحديث عن اللغة العربية، ويعرض عن استخدام كلمة (لغة) لأنها من اللغو. ويرجع زكي الأرسوزي نشأة اللسان العربي إلى الطبيعة والنفس والمعنى. وأنّ المزايا الأساسية للسان العربي أنه اشتقاقي البنيان، وفيه تنكشف مزاياه اللغوية والاجتماعية.

تحولت اللغة عند زكي الأرسوزي إلى أيديولوجيا يحلل من خلالها قضايا الواقع وهمومه عبر آليات اللغة، بهدف استنهاض الهمم، وبذلك يتحول الاهتمام اللغوي عنده إلى مشروع تنويري نهضوي سياسي، يهدف إلى محاربة الأتراك والانتداب الفرنسي عبر اللغة، وإلى محاولة بناء الإنسان، وإصلاح المجتمع وبعث الأمة العربية إلى العالم.

مراجع البحث:

1. خليل أحمد (1981)، دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ط$_2$.
2. زكي الأرسوزي (1976)، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، دمشق، ط$_1$.
3. ناصيف نصار (1975)، طريق الاستقلال الفلسفي: سبيل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، دار الطليعة، بيروت، ط$_1$.
4. زكي الأرسوزي (1972)، المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، دمشق، ط$_1$.
5. زكي الأرسوزي (1974)، المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، دمشق، ط$_1$.
6. أنطوان مقدسي (1972)، "في الطريق إلى اللسان"، مجلة الموقف الأدبي، العددان 3-4.
7. سليم بركات (1979)، الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، مطابع مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، دمشق، ط$_2$.
8. زكي الأرسوزي (1968)، "في فلسفة اللغة"، مجلة الشرطة، العدد 31، السنة الثالثة.
9. ابن منظور (دت)، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، المجلد الخامس، دار المعارف بمصر، القاهرة.
10. زكي الأرسوزي (1975)، المؤلفات الكاملة، المجلد الخامس، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، دمشق، ط$_1$.
11. زكي الأرسوزي (1974)، المؤلفات الكاملة، المجلد الرابع، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، دمشق، ط$_1$.
12. ناصيف نصار (1994)، تصورات الأمة المعاصرة، دار أمواج، بيروت، ط$_2$.